

تفسير التطور الحضاري عند مالك بن نبي و أرنولد توينبي

أ.د/ شيكو يمينه

أستاذ التعليم العالي المدرسة العليا للأساتذة – بوزريعة

الملخص

لقد تعرض كل من المفكر الجزائري مالك بن نبي (1905 – 1973م) و المؤرخ و الفيلسوف الإنجليزي أرنولد توينبي (1889 – 1975م) لموضوع الحضارة بالدراسة و البحث، و كان لكل منهما مفاهيمه في ذلك و نظريته. ولا شك أن كلا منهما سلك منهجا خلال الدراسة و أعطى بعدا فكريا. و الملاحظ من خلال ذلك أنه كان بينهما نوع من التشابه في طريقة دراسة الحضارات من حيث سيرها في خط واحد و مرورها بنفس المراحل (النشأة – التطور – الانحطاط). غير أن مالك بن نبي سلك منهجا تحليليا، بينما أ. توينبي اتبع منهجا تاريخيا. و بناء على ذلك جاءت نتائج دراستيهما مختلفة تتخللها بعض أوجه التشابه أحيانا ونقاط الاختلاف كثيرا، مع بقاء شخصية كل منهما بارزة خلال كل ذلك.

الكلمات المفتاحية:

الحضارة – التطور – الانحطاط – النهضة – المجتمعات البدائية – المجتمعات الحضارية - المجتمعات الطبيعية – المجتمعات التاريخية

Abstract

The Algerian thinker Malik Ben Nabi (1905-1973) and the English historian and philosopher Arnold Toynbee (1889-1975) studied and researched the subject of civilization, and each had its own concepts and theory. There is no doubt that both of them took a course during the study and gave an intellectual dimension. It is noticeable that there was a similarity between the two types of study of civilizations in terms of their progress in one line and their passage in the same stages (evolution, development and decay). Malik bin Nabi, however, took an analytical approach. Toynbee followed a historical approach. Consequently, the results of their studies were different, interspersed with some similarities and points of difference frequently, with each of their personalities remaining prominent throughout it.

Keywords : Civilization - Evolution - Decadence - Renaissance - Primitive societies - Civilizational societies - Natural societies - Historical societies

الاشكالية:

إن المتأمل في الفترة التاريخية التي عاش فيها كل من مالك بن نبي (1905 – 1973م) و أرنولد توينبي (1889 – 1975م) يلاحظ أنهما عاشا في فترة زمنية واحدة ، و أنهما كانا أيضا مهتمين بمشكلة الحضارة: فألف مالك بن نبي عدة كتب كلها تحت عنوان (سلسلة مشكلات الحضارة) ، كتعبير دقيق عن فكرة "الحضارة " التي آمن بها و التي يعتبرها الجزء الاساسي لدراسة مشكلات الشعوب¹. و كذلك الشأن فيما يتعلق بأرنولد توينبي، من خلال مؤلفه العظيم (دراسة التاريخ) الذي يتكون من عشر مجلدات تناول فيها قضايا تاريخية مهمة حول نشوء الحضارات و نموها و توقفها عن النمو و انحلالها. فما الذي جعلهما

وهما من مجتمعين مختلفين أن يهتما بنفس الموضوع ؟ و هل يعني ذلك أن دراستيهما كانتا متشابهتين في مفاهيمهما و أبعادهما؟

التعريف بكل من مالك بن نبي و أرنولد توينبي:

1-أرنولد توينبي:

ولد (جون أرنولد توينبي) في لندن عام 1889م، و كانت أسرته معروفة بمكانتها الثقافية. تلقى تعليمه في منشستر، ومن ثم في (كلية باليول) بجامعة أكسفورد، الى أن أصبح مدرسا فيها خلال الفترة (1912 – 1915). و عمل في وزارة الخارجية البريطانية، خلال الحرب العالمية الأولى، و قد حضر مؤتمر الصلح الأول في باريس عام 1919م ، و مؤتمر الصلح الثاني عام 1946م. عين أستاذ اللغة اليونانية و التاريخ البيزنطي بجامعة لندن عام 1919م، الى غاية استقالته من هذا المنصب في عام 1924م . و قام بجولات واسعة النطاق في بلدان متعددة ، اعترفت بفضلها ، و ألقى محاضرات فيها ، منها على سبيل المثال مايلي: (استعراض لتاريخ العالم في نصف القرن الأخير) ، و (أسلوب الحياة الغربي في الميزان) ، و (الشرق الأوسط في الميزان) ألقاها خلال زيارته لمصر في عام 1964م . توفي في أكتوبر عام 1975م .

- توينبي المؤرخ و المفكر:

يعتبر أ. توينبي نفسه، أنه سعيد الحظ عندما عاش في فترة اضطرابات سياسية و حربين عالميتين، فكانت هذه مادة خصبة للمؤرخين.

لقد أثارت الحرب العالمية الأولى و كتاب (تدهور الغرب) (1922م) للفيلسوف و المؤرخ الألماني أسفالد شبينغلر(1880 – 1936م) ، قلقه على مصير الحضارة الغربية ، فأكب على دراسة الحضارات السابقة للتعرف على أسباب تدهورها و فناء بعضها. فكانت ثمرة هذه الدراسة موسوعته الضخمة في التاريخ الحضاري (دراسة التاريخ) ، الذي استغرق بين التفكير في جمع مادته و تأليفه ثم الرد على منتقديه أربعين عاما، أي خلال الفترة (1921 – 1961م) . و يتكون من عشر مجلدات، ملحق بها مجلدان للرد على الانتقادات و مصير الحضارة الغربيةⁱⁱ.

وقد أذاع هذا العمل الضخم شهرة توينبي كمؤرخ حضاري، من طراز جديد، و أحله مكانة علمية في طليعة مؤرخي و مفكري القرن العشرين . غير أنه كان مثار ردود فعل كثيرة من مؤرخي عصره : فقد أثار المجلد الأخير من ذلك الكتاب غيظ الصهاينة، بما كتبه عن حركتهم كحركة مثيلة للنازية ، لما تمثله من عنصرية دموية، من خلال ما ارتكبته من جرائم بشعة في فلسطين. و قد أدان توينبي الصهيونية وظل على موقفه و الرأي الحاسم بالرغم من كل ما واجههⁱⁱⁱ.

من كتبه الأخرى: (العالم و الغرب)، (الحرب و الحضارة)، (الإسلام و الغرب و الحضارة).

2- مالك بن نبي:

ولد مالك بن نبي في مدينة قسنطينة في الجزائر عام (1905م)، ونشأ في مدينة تبسة. حصل على شهادة البكالوريا، ثم سافر الى باريس حيث دخل كلية الهندسة ، وتخرج منها مهندسا كهربائيا^{iv}. فكانت خبراته العلمية تؤهله للنبوغ في المجال "التقني" لا النظري. ولكن محنة الجزائر و حركة التحرر و شدة

شعور مالك بن نبي بانتمائه الى وطنه، كل ذلك جعله يهجر مهنته الاصلية و يتجه الى قضية التحرر و النهضة يوليها كل وقته، و يسخر لشرحها كل ثقافته.

لقد كان رد فعل شعوره بسيطرة المستعمر و احتقاره لكل مظاهر الانتماء الى العرب و الاسلام، و محاربته لها، كفيلا لتعميق ثقافته الدينية و لتشبثه بها و إبرازها لمواطنيه، في صورة جديدة يعتقد أنها قادرة على المضي بهم نحو النهضة^٧.

مالك بن نبي المفكر:

يحتل مالك بن نبي في جميع أوساط الفكر المعاصر مركزا حسنا، إذ أسهم في علاج كثير من المشكلات بسلسلة كتبه التي ألفها ووضعها تحت عنوان " مشكلات الحضارة". وقد طارده المستعمر الفرنسي فرحل الى مصر و أقام بها. و هناك كتب (شروط النهضة) باللغة الفرنسية. ولقي هذا الكتاب كما لقي مالك بن نبي شهرة واسعة لدى الشباب المثقف المتعطش الى الأفكار الجديدة. فقد وجد بعض ما كان يروجوه في مؤلف مالك بن نبي وفي مؤلفاته الأخرى، التي تستنهض همم الشباب العربي، و التي أودعها كل تجاربه العلمية و الثقافية و صاغها طبقا لمنهج فكري جديد. و لم يمضي وقت طويل حتى أصبح مالك بن نبي رائد مدرسة جديدة في الفكر الاسلامي المعاصر.^{٧١}

-مقارنة بين مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي و أرنولد توينبي:

لقد تناول كل من مالك بن نبي و أرنولد توينبي فكرة الحضارة و أسباب ظهورها و أقولها، وقد أدخل الجانب الديني في تفسيريهما الحضاري، لأنهما أحسا أن أزمة العالم هي أزمة روحية ، فلا بد من وسائل روحية للحد من شدتها. و المقارنة بين كيفية تعرضهما لهذا الموضوع من حيث المنهج و المحتوى و البعد الفكري تبين لنا طبيعة هذا التناول.

1-مقارنة في المنهج:

-أوجه الاختلاف:

-منهج مالك بن نبي:

نلاحظ من خلال ماكتبه مالك بن نبي أنه اتبع منهجا تحليليا. و قد يرجع ذلك إلى ميدان تخصصه: فهو مهندس كهربائي تعود على الأسلوب العلمي خلال فترة تعلمه. والمنهج التحليلي يقوم على تحليل القضايا و تركيبها، للحصول على نتيجة يمكن من خلالها تفسير سير مشكلة معينة. وذلك ما نلاحظه في نظرية مالك بن نبي في الحضارة: فرأى أنها تتكون من العناصر اساسية التالية (الانسان و التراب و الوقت). و لتركيب هذه العناصر يقترح مالك بن نبي فكرة الدين من خلال قوله: " ذلك أن المنهج الذي يتناول واقعة الحضارة لا على أنها سلسلة من الأحداث يعطينا التاريخ قصتها ، بل " كظاهرة " يرشدنا التحليل إلى جوهرها، و ربما الى "قانونها" أي الى سنة الله فيها، هو القادر، فيما أعتقد على أن يستجلي لنا بطريقة أوضح الدور الايجابي الفعال للفكرة الدينية في تركيب تلك الواقعة.^{٧٢}

و لتوضيح فكرة الدين كمركب لعناصر الحضارة يعطي مالك بن نبي مثالا بالتركيب الكيميائي للماء: " فالماء في الحقيقة نتاج للأدروجين و الأكسجين، وبالرغم من ذلك، لا يكونانه تلقائيا. فقد قالوا أن

تركيب الماء يخضع لقانون معين يقتضي تدخل (مركب) ما، بدونه لا تتم عملية تكون الماء ، و بالمثل لنا الحق، في أن نقول أن هنالك ما يطلق عليه (مركب الحضارة) أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض. فكما يدل عليه التحليل التاريخي... نجد أن هناك (مركبا) موجود فعلا، هو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ".^{viii}

منهج أرنولد توينبي:

أما أرنولد توينبي كما يبدو جليا من خلال دراسته للحضارة فقد اتبع منهجا تاريخيا يقوم على المقارنة . و ذلك يرجع أيضا الى ميدان تخصصه ، فهو مؤرخ قبل كل شيء . ومنهجه يقوم على دراسة المعطيات التاريخية و مقارنتها بغية الوصول الى قوانين يفسر بها سير التاريخ، وجعل في كتابه (دراسة التاريخ) العنوان التالي: "الدراسة المقارنة للحضارات".^{ix}

عرض فيه فكرة اتباعه نهج الدراسة المقارنة. فقد تأمل توينبي التاريخ الحضاري و درس ما انطوى عليه من مجتمعات، دراسة مقارنة، فقرر وجود عدد محدد من الوحدات الاجتماعية التي تميزها خصائص معينة، و تجمعها أطوار حضارية متشابهة و تصلح وحدها في رأيه للدراسة التاريخية^x. كما اهتم بالدفاع عن نهج الدراسة الحضارية المقارنة الذي اعتمده في أبحاثه: يفند آراء النقاد فيه، فيخطئ أولا مبدأ التوحيد الحضاري الذي ينفي تعدد الحضارات ، و يقول بوجود حضارة واحدة هي الحضارة الغربية^{xi}، نظرا لما حققته من السيادة العالمية في الحقلين الاقتصادي و السياسي، و سوء تفسيرهم لمعنى " الوحدة التاريخية"، و وقوعهم بالنظر إليها، في أوهام ثلاثة:

أولا: وهم الشعور "بالأثرة" المدعية.

ثانيا: وهم الاعتقاد "بجمود الشرق"

ثالثا: وهم الاعتقاد "بأن التاريخ الحضاري يتبع في تقدمه خطا مستقيما ، و أنه من الممكن تقسيم أدواره إلى ثلاثة : قديم و متوسط و حديث. بالإضافة الى التقويم الميلادي للتاريخ ، وهما لايعنيان شيئا بالنسبة لشعوب الحضارات الأخرى كالصين وغيرها^{xii}.

ثم يرد توينبي على النقاد الذين لايسلمون معه بإمكانية المقارنة بين الحضارات المختلفة، بحجة أنها غير معاصرة لبعضها بعض، و لقيام الزمان التاريخي كله مدى فاصلا بين البائدات منها في فجر الحضارات و بين ما لا يزال منها حيا. يرفض توينبي اعتراضهم بقوله أن الزمان شئ نسبي ، و ذلك يعني أن ننظر الى الفترات الزمانية التي عاشتها الحضارات نفسها، ولا ننظر الى عمر الحياة البشرية كلها على الأرض. فالحضارات تعتبر نسبيا ظاهرة حديثة للغاية في التاريخ البشري، فإن أقدمها لم ينشأ أبعد من ستة آلاف سنة مضت^{xiii}.

كما يرد على الاعتراض على نهج الدراسة المقارنة لما بين الحضارات – في اعتقاد بعض النقاد – من تفاوت عظيم في القيمة بقوله: ان القيمة كالوقت – مسألة نسبية: فإذا قسمنا مقدار ما حققته الحضارات من التقدم ، بمقدار ما حققته المجتمعات البدائية تبين فضل الأولى على الثانية، ولكن إذا قسمنا ذلك المقدار بمقياس أمثل، تبين قصور الحضارات عن إدراك تلك الغاية المثلى ، و تهافت معنى المفاضلة في القيمة،

وهكذا فمن الواجب أن ينظر الى الإحدى و عشرين حضارة على أنها من النحية الافتراضية ، معاصرة فلسفيا و متعادلة كذلك في القيمة^{xiv} .

أما بالنسبة للذين يرون، أن تواريخ الحضارات إن هي إلا تسلسل الوقائع التاريخية، وأن كل واقعة تاريخية فريدة في جوهرها، وأن التاريخ لا يعيد نفسه ، مما يقود إلى رفض مبدأ المقارنة و إلى نفي التشابه في التاريخ، فإن أرنولد توينبي يرد على هذا الرأي بقوله: " أنه بينما الواقعة كالفرد في ذاتها ، وهي بالتالي لا تقبل المقارنة من بعض النواحي، إلا أنها في بعض النواحي الأخرى قد تكون عضوا في صنف ، و يمكن بالتالي المقارنة بينها و بين الآخرين في ذلك الصنف بالقدر الذي يشملها التصنيف"^{xv} .

نستنتج من خلال ما تقدم اختلافا في طريقة دراسة مشكلة الحضارة بين أرنولد توينبي و مالك بن نبي. فهذا الأخير اتبع طريقة تحليلية بينما أرنولد توينبي سلك طريق المقارنة. إلا أن هذا الاختلاف لا ينفي إمكانية وجود تشابه بينهما كما يلي:

-أوجه التشابه:

إن أوجه التشابه نلاحظها بشكل خاص بين مالك بن نبي و أرنولد توينبي من خلال بعض المفاهيم المستخدمة في نظريتهما الحضارية، وذلك في ضوء النقاط التالية:

-لقد لاحظ المفكران أن المجتمعات تنقسم الى قسمين:

-أرنولد توينبي يرى أنها تنقسم الى مجتمعات بدائية و أخرى حضارية. وهذه الأخيرة تختلف عن الأولى في كونها الوحيدة التي تمر بطور التحضر^{xvi} .

– أما مالك بن نبي فيرى أن المجموعة الأولى هي المجموعة الطبيعية ، و المجموعة الثانية هي المجموعة التاريخية^{xvii} . فالمجتمع الطبيعي أو البدائي هو المجتمع الساكن، ذو المعالم الثابتة. أما المجتمع التاريخي فهو النوع الذي يحقق النموذج المتحرك، أي المجتمع الذي يخضع لقانون التغيير^{xviii} . وهذا المجتمع الأخير(المتحرك) هو مجال دراسة كل من مالك بن نبي و توينبي.

فمن الناحية المنهجية قسم كلاهما الحضارات الى مراحل متفاوتة، أي أن كلاهما درس الحضارات فوجدها تسير في خط واحد و تمر بمراحل لا تكاد تخلو منها حضارة من الحضارات، فكل الحضارات تمر بمرحلة نمو و ازدهار ثم تنتهي بالتدهور و الانحطاط. فمالك بن نبي يرى أن الحضارات تمر بمرحلة ازدهار ثم أوج و تنتهي بالأفول، ويقرر أن " المدنيات الانسانية حلقات متصلة تتشابه أطوارها مع أطوار المدنية الاسلامية و المسيحية، إذ تبدأ الحلقة الأولى بظهور فكرة دينية، ثم يبدأ أفولها بتغلب جاذبية الأرض عليها، بعد أن تفقد الروح ثم العقل."^{xix} وأرنولد توينبي يرى ان الحضارة تمر بمرحلة نشوء و نمو فانحلال و سقوط. و يرى أن سر نشوء الحضارات يكمن في الاستجابة الطافرة لتحدي البيئة المناسبة (الوسط الذهبي)، و أن الظروف الصعبة لا السهلة هي التي تستحث الانسان على التحضر، بل إن رقة العيش حائل دون قيام الحضارة.^{xx} و يحدث الارتقاء وقتما تصبح الاستجابة لتحدي معين لا ناجحة في نفسها فحسب، لكنها تستثير تحديا إضافيا، يقابل باستجابة ناجحة.^{xxi}

كما يرى أن جميع اسباب الارتقاء تنبعث عن أفراد مبدعين أو أقلية صغيرة^{xxii} . و أن العامل الرئيسي في انهيار الحضارة هو فقدان الأقلية الحاكمة الطاقة المبدعة فيها.^{xxiii}

لكن بالرغم من هذا التشابه في المنهج إلا أن كلا منهما يفسر مراحل التطور الحضاري تفسيراً يختلف عن الآخر، على الرغم من أنهما يدخلان الجانب الديني في تفسيرهما.

2-مقارنة في المحتوى و البعد الفكري:

من خلال هذه المقارنة سوف يتبين مدى الاتفاق و الاختلاف بين نظرية مالك بن نبي و أرنولد توينبي الحضارية و بعديهما الفكري و الديني، و الى أي مدى كان مالك بن نبي متأثراً بأفكار أرنولد توينبي، و ما هي نقاط الأصالة و التأثير في نظريته، و ذلك في ضوء النقاط التالية:

أولاً: نشوء الحضارات و ازدهارها:

1- المجتمعات البدائية و المجتمعات الحضارية:

قبل الشروع في تفسير الحركة التاريخية و سر انبعاث الحضارات يرى كل من مالك بن نبي و أرنولد توينبي ضرورة التفرقة بين مجتمعين مختلفين ، هما المجتمع البدائي و المجتمع الحضاري، لأن الأول يتميز بالسكون، بينما الثاني بالحركة.

فمالك بن نبي يتعرض لذلك من خلال طرح فكرة المجتمع الطبيعي و المجتمع التاريخي: فالمجتمع الطبيعي هو المجتمع البدائي ، وهذا النوع يحقق نموذج المجتمع الساكن ذي المعالم الثابتة.

أما المجتمع التاريخي ، فهو الذي ولد في ظروف أولية معينة، و لكنه عدل من بعد صفاته الجذرية، ابتداء من هذه الحالة الأولية، طبقاً لقانون تطوره. وهو النوع الذي يحقق النموذج المتحرك، أي المجتمع الذي يخضع لقانون التغيير الذي يعدل معالمه من جذورها.^{xxiv}

اما **أرنولد توينبي** فيتعرض أيضاً لهذه النقطة ، ويرى أن ثمة اختلاف بين هذين المجتمعين: فالجماعات البدائية يعرفها بأنها ثابتة، بينما الحضارات في حركة ديناميكية – ماعدا الحضارات المتعطلة. ويقرر أن الحضارات النامية، تختلف عن الجماعات البدائية الثابتة، بفضل الحركة الديناميكية للشخصيات الفردية المبدعة إبان تكوينها الاجتماعي.

و يرى أن الأكثرية العظمى من الاعضاء المشتركين في كل حضارة نامية، في نفس الحالة الساكنة المتوقفة عن التقدم ، مثلها مثل أعضاء مجتمع بدائي ساكن. و أكثر من ذلك فإن الأكثرية العظمى للمشاركين في حضارة نامية باتثناء القشرة العلمية المبسطة فوقهم، أناس تتفق انفعالاتهم مع البشرية البدائية و هنا يعثر توينبي على عنصر الحقيقة، في القول بأن الطبيعة البشرية لا تتغير.^{xxv}

وفي هذا الصدد يتعرض مالك بن نبي و أرنولد توينبي الى نقطة أخرى تتعلق بنشأة المجتمعات و نماذجها:

-فمالك بن نبي يرى أن المجتمع التاريخي يتعرض للتنوع الناشئ عن الطرف التاريخي، الذي يتيح له ميلاده. ومن هذه الزاوية هناك نوعان من المجتمع:

أ- المجتمع التاريخي الذي يولد ، فيكون ميلاده إجابة عن اختيار مفروض تفرضه الظروف الطبيعية الخاصة بالوسط الذي يولد فيه. و هذا هو النموذج الجغرافي.

ب- المجتمع التاريخي الذي يرى النور، تلبية لنداء فكرة ، وهذا هو النموذج الفكري (الايديولوجي)^{xxvi}.

- أما أرنولد توينبي فنجد في نظرية التحدي و الاستجابة يؤكد أن المجتمعات تنشأ خلال استجابات ناجحة لتحديات جغرافية (طبيعية) أو بشرية^{xxvii}.

فهنا نجد نوعا من الالتقاء بين مالك بن نبي و أرنولد توينبي حول هذه الفكرة: أولا من ناحية تعريفهما للمجتمعين: البدائي الذي يتميز بالسكون في نظرهما ، و المجتمع الحضاري بالحركة و التطور. و كذلك نلاحظ تشابها في مصدر ميلاد المجتمع التاريخي المتولد عن الظروف الطبيعية، أي النموذج الجغرافي. ويمكن أن نرجع ذلك الى اطلاع مالك بن نبي على مؤلفات أرنولد توينبي و اقتباسه منها، كما هو ملاحظ في كتابات مالك بن نبي. فقد أشار في كتابه شروط النهضة الى العامل الجغرافي كتحد في نشأة الحضارة عند أ. توينبي من خلال قوله: " غير أن توينبي يدخل العامل الجغرافي ضمن مذهبه المتمثل فيما يدعوه "بالتحدي" و هو المذهب الذي يفسر الحضارة ك "رد" معين يقوم به أحد الشعوب أو الأجناس مواجهة ل "تحد" معين^{xxviii}."

2- دور العلاقات الاجتماعية في قيام الحضارات:

- المجتمع و الفرد:

من خلال طرح فكرة المجتمع و الفرد بين كل من مالك بن نبي و أ. توينبي و دور العلاقات الاجتماعية و ضرورتها لقيام الحضارات، يقول مالك بن نبي: " إن الطبيعة توجد النوع ، و لكن التاريخ يصنع المجتمع، وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية، هو ما يطلق عليه إسم الحضارة^{xxix}."

و هو يشير الى أن وجود نشاط متآلف من الناس والأفكار و الأشياء في مكان معين، يدل على أن الحضارة قد بدأت في هذا المجال، وأن تركيبها قد تم فعلا في عالم الأشخاص.

و يرى أن العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغير الفرد، من كونه "فردا" إلى أن يصبح "شخصا". و ذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع.^{xxx}

والمجتمع كما يراه مالك بن نبي، ليس مجرد كمية من الأفراد، بل هو الجماعة الانسانية التي تتطور ابتداء من نقطة يطلق عليها مصطلح "ميلاد"^{xxxi}، يقول: " ولكن حين نتحدث عن "ميلاد" معين، فإننا نعرفه ضمنا كحدث، يسجل ظهور شكل من أشكال الحياة المشتركة كما يسجل نقطة انطلاق لحركة التغيير التي تتعرض لها الحياة، ويظهر هذا الشكل في صورة نظام جديد للعلاقات بين أفراد جماعة معينة^{xxxii} ". ومجموع هذه العلاقات الضرورية يسميها ملك بن نبي شبكة العلاقات الاجتماعية، ويسميها أيضا "عالم رابع"، لأنه يرى أن صناعة التاريخ تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاثة :

- تأثير "عالم الأشخاص"

-تأثير "عالم الأفكار"

- تأثير "عالم الأشياء"

بالإضافة الى هذه العوالم الثلاثة يوجد عالم رابع، هو مجموع العلاقات الاجتماعية. فالمجتمع ليس مجرد كمية من الأفراد، كما تقدم، و إنما هو اشتراك هؤلاء الأفراد في اتجاه واحد، من أجل القيام بوظيفة معينة، ذات غاية و أن "عمل" المجتمع ليس مجرد اتفاق عفوي بين الاشخاص و الأفكار و الأشياء، بل هو تركيب هذه العوالم الاجتماعية الثلاثة بحيث يحقق ناتج هذا التركيب في اتجاهه وفي مده "تغيير" وجوه الحياة أو بمعنى أصح تطور هذا المجتمع^{xxxiii}.

- و أرنولد توينبي : أيضا اهتم بمسألة المجتمع و الفرد، وقد خصص لذلك عنوانا في كتابه دراسة التاريخ^{xxxiv}.

فهو يرى أن تقرير المصير هو قاعدة الارتقاء، لأنه يعني الترابط الذاتي بقوله: "وظاهر بوجه عام أن مجتمعا يسير نحو الحضارة تتربط أجزاءه بعضها ببعض، بواسطة الأفراد الذين ينتمون إليه، أو الذين ينتسب هو إليهم".^{xxxv} ثم يتساءل توينبي عن الطريقة المثلى، لوصف العلاقة بين الجماعات البشرية و الأفراد.

فينتهي الى أن المجتمع البشري ، هو ذاته نظام للعلاقات بين الكائنات البشرية. ولا تقتصر تلك الكائنات على مجرد كونها أفراد، فإنها كذلك حيوانات اجتماعية، بمعنى أنها تعجز عن البقاء -على الإطلاق- إن افتقرت إلى وجود هذه العلاقة بين بعضها بعض. وبالتالي فالمجتمع هو حصلة العلاقات بين الأفراد ، وتبرز هذه العلاقات من بين ثنايا تطابق أفعالهم الشخصية. و يوحد هذا التطابق الميادين الشخصية في نطاق أرض مشتركة، وهذه الأرض هي ما يدعوه بالمجتمع.

ويقول: "أنه إن ارتضى هذا التعريف، انبعثت منه نتيجة هامة تمتاز بالوضوح. مدارها أن المجتمع هو ميدان الفعل ، إلا أن مصدر الفعل بأسره مرجعه الأفراد الذين يتكون منهم المجتمع^{xxxvi}".

نلاحظ إذن من خلال ما تقدم أن كلا من مالك بن نبي و أ. توينبي قد اهتم بالعلاقات الاجتماعية و دورها الأساسي في بناء المجتمع ، وبالتالي في بناء الحضارات. وكان هناك تقارب كبير بينهما حول هذه النقطة بالرغم من الاختلاف في التحليل.

– سر ظهور وتطوُّرها الحضارات:

إن الفيلسوف الألماني هيغل (1770 – 1831) يرجع الأسباب التي تحكم كل حركة تاريخية تؤدي الى تغيير اجتماعي، إلى مبدأ التعارض، الذي يتكون من قضية ونقيضها. ولما تنشأ الحركة طبقا لهذه الأسباب المتعارضة فإن غايتها في نظره تتمثل في صورة اندماج و تركيب محتوم.

و يعتبر تفسير فكرة التعارض هو الميدان الذي اختلفت فيه المذاهب الفكرية الحديثة. وهذه الفكرة نجدها الى حد ما في نظرية أ. توينبي: لقد اتبع هذا الأخير منهجا ينطبق في جانب منه على تخطيط هيغل. و ذلك حين شبه فكرة التعارض بعقبة ذات طابع اقتصادي أو فني عبر عنها بكلمة "تحدي". وفي نظره أن التحدي يتوجه الى ضمير الفرد أو الجماعة، و تكون مواجهته له بالقدر الذي تكون عليه أهمية الاستفزاز، و بين الموقف الذي يتخذه الضمير في مواجهته.

و يضع أ. توينبي التغيير الاجتماعي بين حدين، لا يتم خارج نطاقها، وذلك في حالة شبيهة بالتفريط ، تنشأ عن نقص في التحدي أو شبيهة بالإفراط تنشأ عن زيادته على قدر معين . و بهذه الطريقة يفسر توينبي أهم المراحل في التاريخ الانساني.^{xxxvii} و هذه الفكرة بالذات يقتبسها مالك بن نبي عن أ. توينبي و

يصوغها صياغة أخرى نلاحظها من خلال قوله: "يمكننا أن نصوغ الى حد ما هذا الرأي (ما ذهب إليه المؤرخ تينبي)، صياغة جديدة، وفي ضوء القرآن الكريم، فقد نستطيع حيث لم نصل بهذه الطريقة الى تفسير واضح لمنشأ الحركة التي ولدت المجتمع الاسلامي و غايته التاريخية، أن نفسر هذه الحركة بالعوامل النفسية التي حفزت القوة الروحية في هذا المجتمع ، أعني شروط حركته عبر القرون.^{xxxviii} ففي رأيه أن القرآن قد وضع الضمير المسلم بين حدين هما: الوعد و الوعيد. و معنى ذلك في نظره أنه قد وضعه في أنسب الظروف التي يتسنى له فيها أن يجيب على تحد روعي في أساسه: فالوعد هو الحد الأدنى الذي لا يوجد دونه جهد مؤثر ، و الوعيد هو الحد الأعلى الذي يصبح الجهد من ورائه مستحيلا، وذلك حين تطغى قساوة التحدي على القوة الروحية التي منحها الانسان.

وبذلك نجد أن الضمير المسلم قد وضع بين حدي العمل – المؤثر، وهما الحدان اللذان ينطبقان على مفهوم الأيتين الكريمتين:^{xxxix}

1- "فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون"^{xl}. "وعيد"

2 - " إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون"^{xli} "وعد".

ومن هنا يستنتج مالك بن نبي أن الحركة التاريخية ترجع في حقيقتها الى مجموعة العوامل النفسية، تعتبر ناتجة عن بعض القوى الروحية، التي تجعل من النفس المحرك الجوهرى للتاريخ الانساني.^{xlii}

و يرى مالك بن نبي أن تنظيم العلاقة التي تتيح للمجتمع أن يتم نشاطه يمكن أن تتم إذا تم تركيب الانسان و التراب و الوقت. و لكن هذا التركيب الذي يتفق من الوجهة التاريخية مع ظهور حضارة معينة لا ينتج تلقائيا، بل يتم على إثر حدوث "ظرف إستثنائي". و المجتمعات التاريخية التي تكون 100/80 من مجموع سكان البسيطة، فإن "الظرف الاستثنائي" الذي يسجل نقطة الانطلاق في تاريخ مجتمع معين منها يتفق في الحقيقة مع ظهور فكرة دينية.^{xliii}

فهو يرى أن العلاقة الروحية بين الله وبين الانسان هي التي تلد تلك العلاقة الاجتماعية، و هذه بدورها تربط ما بين الانسان و أخيه الانسان في صورة القيمة الاخلاقية. فعلى هذا يمكننا أن ننظر الى العلاقة الاجتماعية و العلاقة الدينية معا من الوجهة التاريخية على أنها حدث، ومن الوجهة الكونية على أنها عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد.^{xliv}

أما أ. توينبي فإن "الظرف الاستثنائي" بالنسبة لنظريته يظهر في صورة "تحدي"، يخلقه الوسط الطبيعي أو البشري، بحيث يصبح المجتمع ملزما بمواجهته و الاجابة عنه. إلا أن ارتقاء المجتمعات لا يتم من خلال استجابة ناجحة واحدة لتحدي واحد فقط، بل الارتقاء الحقيقي في نظر توينبي هو ذلك الذي ينجم عن استجابات عديدة ناجحة لتحديات متعددة^{xlv}، و لهذا الارتقاء مظاهره المختلفة الظاهرة و الباطنية. ففي الكون الأكبر يتبدى الارتقاء على هيئة تفوق متتابع على البيئة الخارجية. أما في حالة الكون الأصغر يتبدى الارتقاء على هيئة تقرير المصير أو ترابط ذاتي.

نخلص مما تقدم إلى أن سر نشوء الحضارات عند كل من مالك بن نبي و أ. توينبي يرجع الى "ظرف استثنائي" على حد تعبير مالك بن نبي ، و أن هذا الظرف يتفق مع ظهور فكرة دينية ، أو مبدأ أخلاقي في نظر مالك بن نبي، أما عند توينبي فيظهر في صورة "تحدي". و هذه الفكرة الأخيرة تأثر بها مالك بن نبي، عندما حاول صياغة فكرة التحدي صياغة جديدة، في ضوء القرآن الكريم، لعله يصل من

خلال ذلك الى تفسير واضح لمنشأ الحركة التي ولدت المجتمع الاسلامي. ففي رأيه أن القرآن قد وضع الضمير المسلم بين حدين هما: الوعد و الوعيد.

-الأفكار و التوجيه:

إن دور الأفكار في بناء المجتمعات عند أرنولد. توينبي نلمسه من خلال تلك القيمة الخاصة التي يعطيها للأفراد او الأقليات الصغيرة. فهو يرى أن الأفراد هم "مصدر الفعل"، ذلك لأن جميع أسباب الارتقاء تنبعث عن أفراد مبدعين أو أقليات صغيرة من الأفراد ، و يتكون عملهم من جزئين:

- 1- تحقيق إلهامهم أو كشفهم ، مهما يكن من أمر.
- 2- و هداية المجتمع الذي ينتمون إليه إلى سبيل الحياة الجديدة . هذا و يتأتى من الناحية النظرية حدوث هذه الهداية بطريق أو بآخر:

- إما بتعريض المجتمع للتجربة الواقعة التي حولت الأفراد مبدعين.

- و إما بتقليد الناس لمظاهر الهداية الخارجية. و بعبارة أخرى الهداية بفضل المحاكاة. و يعتبر الطريق الأخير- من الناحية العملية – مجال الاختيار الوحيد المفتوح في حالة الجميع، ما خلا أقلية بسيطة من الجنس البشري. وأن المحاكاة "طريق مختصر" ، لأنه طريق في وسع عامة الناس جميعا سلوكه، في إثر زعمائهم.^{xlvi}

أما مالك بن نبي فيرى أن التاريخ ليس سوى هذا التغيير الذي تتعرض له "الذات" ، و المجال الذي يحيطها على السواء، وبتعبير أدق: إن صناعة التاريخ تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاثة:

1- تأثير "عالم الاشخاص"

2 – تأثير "عالم الأفكار"

3- تأثير "عالم الأشياء" ^{xlvi}

ففي فترة دخول مجتمع ما في التاريخ يكون للأفكار دور وظيفي لأن الحضارة هي القدرة على القيام بوظيفة أو مهمة معينة، وهذه الأفكار قد يأتي بها شخص واحد ثم ينشرها على غيره، وهذا ما يؤكد مالك بن نبي في قوله: "إن هذه الصورة الجديدة للحياة المشتركة قد تبدأ بفرد واحد يمثل في هذه الحالة نواة المجتمع الوليد، و ذلك بلا شك هو المعنى المقصود من كلمة "أمة" عندما يطلقها القرآن الكريم على إبراهيم (عليه السلام) في قوله: "إن إبراهيم كان أمة"^{xlvi} ففي هذه نجد أن المجتمع "الأمة"، يتلخص في انسان واحد أي أنه يتلخص في مجرد احتمال حدوث تغيير في المستقبل مازال في حيز القوة تحمله فكرة يمثلها هذا "الانسان"^{xlvi}.

و في هذه النقطة بالذات نلاحظ التقاء بين مالك بن نبي و أ. توينبي: فتوينبي يرى أن الأفكار يحملها أفراد أو أقلية صغيرة ، و مالك بن نبي كذلك ، فهو يرجع الأفكار و خاصة منها الدينية – إلى أفراد كالفكرة الاسلامية. و هؤلاء الأفراد هم الذين يحملون مجتمعهم على التغيير عن طريق التوجيه.

و فكرة التوجيه هذه نجدها عند أرنولد توينبي نوعا من التدريب أو المحاكاة . فهو يرى أن واجب الزعيم ينصرف الى تحويل زملائه الى أتباع له ، و في وسع جمهرة البشرية التحرك صوب هدف¹.

-البعد الديني عند كل من مالك بن بي و أرنولد توينبي:

لقد أدخل كل من مالك بن نبي و توينبي فكرة الدين في تفسيرهما الحضاري، إلا أنهما يختلفان في كيفية طرح هذه الفكرة ودورها في الحضارة:

فمالك بن نبي يرى أن الدين "مركب الحضارة " ، لأن العناصر الأساسية التي تتكون منها كل حضارة هي: الانسان و التراب و الوقت. إلا أن الصيغة التالية:

كل ناتج حضاري = انسان + تراب + وقت

تثير عند التطبيق اعتراضا هاما هو: إذا كانت الحضارة في مجموعها ناتج الانسان و التراب و الوقت، فلم لم يوجد هذا الناتج تلقائيا حيثما توفرت هذه العناصر الثلاثة؟^{li}

إن هناك ما يطلق عليه "مركب الحضارة "، في نظره، أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة، بعضها ببعض. هذا "المركب " هو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ.^{lii} وفي ضوء هذه الفكرة يفسر مالك بن نبي الدورة الحضارية: " إذ تبدأ حينما تدخل التاريخ فكرة دينية معينة، أو مبدأ أخلاقي معين على حد قول "كيسيرلنج" كما أنها تنتهي حينما تفقد الروح نهائيا الهيمنة التي كانت لها على الغرائز المكبوتة أو المكبوحة الجماح.^{liiii}

وتمر الدورة الحضارية – حسب مالك بن نبي – بثلاث مراحل: مرحلة النهضة متمثلة في ظهور الروح و سيطرتها على الغرائز و تحكمها في سير الأحداث. وتليها مرحلة الأوج متمثلة في ظهور العقل و ازدهار العلوم و بداية الغرائز من جديد. و أخيرا تأتي مرحلة الثالثة هي مرحلة الغرائز. و فيها تكون الروح قد فقدت سيطرتها نهائيا . فيختل المجتمع و تنهار حضارته ، في انتظار نعمة روحية جديدة، تشيع في أرجائه ليقبل على الأرض بمهمة لا تعرف الكلل، حيث يبني الحضارة من جديد.^{liv} أما أرنولد توينبي ففكرة الدين في نظريته تختلف عن مالك بن نبي: فهو يرى أن الأديان العالمية تنزع الى الظهور في غمار عصور الاضطرابات و تحلل المجتمعات.^{lv}

أما دور هذه الديانات فيقتصر على إبقاء أنواع من المجتمعات يسميها توينبي الحضارات. فالديانات الجامعة، تحفظ استمرار النوع الحضاري من المجتمعات. إذ ستبقى بذرته الثمينة حية خلال "زمن الانتقال" الخطر، وهو الزمن الذي يمر به النوع من دور تزول فيه إحدى حضاراته الى دور آخر تنشأ فيه مكانها حضارة جديدة. إن الديانات الجامعة نافعة - في نظره - و ربما كانت ضرورية في عملية التوالد الحضاري المتكررة، و لكنها ظاهرة ثانوية و انتقالية ، ووظيفتها أشبه بوظيفة البيضة أو دودة القز، بين فراشة و فراشة.^{lvi}

هذا ما كان يعتقد توينبي عندما أنهى المجلدات الستة الأولى من كتابه (دراسة التاريخ).^{lvii} ولكنه عاد في المجلدات الأربعة الأخيرة التي أتم بها موسوعته فصصح هذا المبدأ، الذي يقصر مهمة الديانات على حفظ النوع الحضاري، ويجعلها بالنسبة إليه وسيلة لا غاية.^{lviii} " إنها هي نفسها قبلة الارتقاء

الحضاري و هي نفسها الغاية الكبرى أنها تمثل مجتمعة ، أسمى ما تنتشوق الانسانية الى تحقيقه من المثل العليا.^{lix}

و بالرغم من الاهتمام الكبير الذي يوليه توينبي للدين ، غير أنه لم يعطه الدور الفعال في الحضارات ، مثلما فعل مالك بن نبي: و نلمس ذلك من خلال تفسيرهما لتطور الحضارة الاسلامية.

فبينما يرى مالك بن نبي أن الدين هو المحرك الأساسي للحضارة الاسلامية ، فإن أ.توينبي لا يخرج الدين عن إطاره الروحي، أي لو تطلع الدين في رأيه الى السياسة، فذلك يعني بدء انحدار الحضارة، ودليله في ذلك أيضا الحضارة الاسلامية: فتوينبي يرى أن الاسلام قد قام بفضل خاصيتين فيه بسد حاجة المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية، هما: التوحيد في الدين و النظام في الدولة.^{lx} و في نظره قد تحقق هذا العمل الرئيسي ، الذي وجد محمد نفسه مدعوا الى القيام به على مرحلتين متناقضتين في جوهرهما:

(1) مرحلة دينية خاصة تجسدت فيها قوة الاسلام.

(2) ثم مرحلة سياسية دينية، بعد إنشاء دولة يثرب و اتساعه بعد ذلك خارج حدود شبه الجزيرة العربية. وقد بدأت المرحلة "باعتكاف" النبي أو هجرته من مكة الى المدينة. و استؤنفت على أشدها عند "عودته" الى مكة فاتحا، بعد سبع سنوات "من الاعتكاف". غير أن حركتي "الاعتكاف و العودة " اللتين قام بهما الرسول في حياته ، تختلفان في نظر توينبي اختلافا يعتبره ظاهرة شاذة في تاريخ الحضارات كلها. " ففي المرحلة الأولى "اعتكف" محمد ليعود "كنبي"، و في المرحلة الثانية "اعتكف" محمد "كنبي" ليعود كفاتح سياسي.^{lxi}

و هكذا تكون الهجرة كما يراها توينبي بدء انحدار الحضارة الاسلامية، و يرى أن نشاط محمد السياسي جدير بالاهتمام كعامل تاريخي خطير الاهمية في حياة الحضارات، و جدير بالاهتمام كظاهرة في رسالة محمد خاصة نفسها. ذلك أنه يخرج بهذه الرسالة عن المبدأ العام الذي ينطبق على حالة جميع الرسائل الأخرى. يعني مبدأ التجلي بما هو حالة ارتقاء تفضي إليها حركة الاعتكاف و العودة، لا حالة انحدار تهبط إليها النفس كما هبط محمد من علياء النبوة الى دنيا السياسة بعودته من المدينة الى مكة. و هنا يعقد توينبي مقارنة بين الديانة المسيحية و الاسلام، يظهر فيها أن المسيحية ظلت على العموم أمينة لقولها أعطوا لقيصر ما لقيصر ، و ما لله لله.^{lxii}

فتوينبي يرى إذن ضرورة الفصل بين الدين و الدولة ، أما مالك بن نبي فعلى العكس من ذلك يرى أن الدين هو المنظم لغرائز الناس.

بالإضافة الى ما تقدم ذكره يرى توينبي أن انتشار الاسلام في المجتمع السرياني عبارة عن رد فعل لتحدي ضغط الامبراطورية الاخمينية الفارسية، و ليس استجابة لمبادئ الدين الاسلامي. فهو يرى أن العرب لما قاموا بهذا الواجب و الاسلام في أوج قوته لم يتوقفوا حتى أعادوا للمجتمع السرياني جميع ممتلكاته السابقة في أوسع نطاقها، ولم يقتصر على إعادة تكوين إمبراطورية عربية من الدولة السورانية العالمية التي كانت قد أدمجت أصلا في الامبراطورية الاخمينية الفارسية، بل إنهم واصلوا عملهم بإعادة فتح ممتلكات قرطاجنة الفينيقية القديمة في افريقيا و اسبانيا.^{lxiii}

مناقشة موقف توينبي من نبوة ورسالة محمد (صلى الله عليه و سلم):

إن هذه الآراء الأخيرة التي قدمها أرنولد توينبي حول الرسول محمد (صلى الله عليه و سلم) تقتضي المناقشة لكن ذلك سوف يكون في حدود نظرية الحضارة لهذا الأخير أي نظرية التحدي و الاستجابة، حتى نبين الجانب غير المنطقي في موقفه هذا.

إن موقف توينبي حول "اعتكاف" الرسول و "عودته"، فيه شيء من التناقض: فهو يرى أن محمدا اعتكف في المرحلة الأولى ليعود نبيا، فيوافق على ذلك. أما في المرحلة الثانية لما هاجر الى المدينة ، اعتكف ليعود كفاتح سياسي، فيخالفه لأن الهجرة – حسب – هي بدأ انحدار الحضارة الاسلامية.

فلو فحصنا هذا الرأي في ضوء نظرية التحدي و الاستجابة لتوينبي، نتوصل الى مايلي: إن محمدا لما "اعتكف" للمرة الأولى، و عاد بعدها نبيا فقط ، و ليس فاتحا سياسيا. فذلك يرجع الى أن الظروف كانت تختلف ، و "التحدي" كان مختلفا.

أما لما عاد محمد كفاتح سياسي ، فالموقف أو "التحدي" كان يستلزم ذلك. و الهجرة أيضا كان لابد منها: فهل يعقل أن يبقى مكتوف الأيدي أمام "تحدي" قومه و أقوام أخرى؟

يبدو لي أن هذه الخطوة السياسية كان لابد منها على الأقل في ضوء نظرية التحدي و الاستجابة. لماذا؟ لأن توينبي يرى في نظريته أن الارتقاء الحقيقي للحضارات لا يتم من خلال استجابة واحدة لتحدي واحد فقط (تحدي طبيعي أو بشري)، بل الارتقاء الحقيقي هو ذلك الذي ينجم عن استجابات عديدة ناجحة، لتحديات متعددة^{lxiv}. وهذا الفتح السياسي، من قبل محمد (صلى الله عليه و سلم)، يبدو لي استجابة ناجحة لتحدي جديد. و هو تحدي بشري أي ما عناه من قومه في تلك الفترة .

فلا أدري لماذا يعترض توينبي على هذه الخطوة الجديدة في رسالة محمد، خاصة و أنه يرى حسب نظريته، أن سبب انهيار الحضارات ناتج عن ضعف الطاقة الابداعية في الأقلية المبدعة، و محمد لم يتوقف عن الابداع الى آخر يوم في حياته، خصوصا وأن القرآن لم ينزل عليه دفعة واحدة، بل استمر نزوله مدة ثلاثة و عشرين عاما، تبعا للظروف و المواقف أو تبعا لنوعية "التحدي" إن شاء توينبي أن يقول.

كما أن توينبي يرى أن النمو الحضاري كله لا يكون إلا بواسطة المبدعين من الأفراد أو فئة قليلة . و هؤلاء يتمثلون في الانبياء و الرسل و هداة الأمم، و يجعل محمدا في صف هؤلاء^{lxv}.

لكن يبدو لي أن جعل محمد (صلى الله عليه و سلم) في هذا الصف من قبل توينبي غير منطقي ، إذا كان هذا الأخير يرى ضرورة الفصل بين الدين و الدولة، إذ كيف يمكن أن تقوم حضارة إذا فصلنا بين هذين العنصرين؟

ثانيا : سقوط الحضارت.

يرى كل من مالك بن نبي و أرنولد توينبي، أن الحضارت تنتهي بالانحلال و السقوط. و أعطى كل منهما تفسيراً لذلك، يبرز فيه أسباب هذا الانهيار، ونلمس من خلال تفسيريهما أنهما يلتقيان في نقاط و يختلفان في أخرى. وهذه أهم أسباب سقوط الحضارات التي يراها مالك بن نبي و أ. توينبي.

1-ضعف العلاقات الاجتماعية :

انتهى مالك بن نبي الى أن تطور مجتمع ما على أية صورة ، هو دائما تطور مسجل كما و كيفا في شبكة علاقاته. و عندما يرتخي التوتر في خيوط الشبكة، تصبح عاجزة عن القيام بالنشاط المشترك بصورة فعالة، فذلك أمانة على أن المجتمع مريض ، و أنه ماض الى نهايته. أما إذا تفككت الشبكة نهائيا ، فذلك يعني إيدان بهلاك المجتمع، و حينئذ لا يبقى منه غير ذكرى مدفونة في كتاب التاريخ^{lxvi}.

و هذه الفكرة نجدها عند توينبي في شكل آخر: ففي رأيه أن المجتمع خلال نموه و ازدهاره يتكون من ثلاث فئات ، هي:

-الأقليات المسيطرة (المبدعة)، و البروليتاريا الداخلية، و البروليتاريا الخارجية، و كلها مترابطة. أما عند انهيار الحضارة فيبدو على هذه الأطراف نوع من التفكك، للأسباب التالية:

- إخفاق الطاقة الإبداعية في الأقلية المبدعة، و تحول هذه الأقلية الى مجرد أقلية مسيطرة.

- رد الأغلبية على تحكم الأقلية المسيطرة بسحبها و لاءها و العدول عن محاكاتها. يتلو ذلك ضياع الوحدة الاجتماعية في المجتمع في مجموعه.

و بينما نجد أرنولد توينبي يرجع سبب تفكك العلاقات الاجتماعية الى ضعف القدرة الإبداعية في الأقلية المسيطرة، فإن مالك بن نبي يرجع سبب التفكك الى ضعف سيطرة الدين على الروح. فهو يرى أن دورة الحضارة تبدأ حينما تدخل فكرة دينية معينة، أو عندما يدخل التاريخ مبدأ أخلاقي معين. كما أنها تنتهي حينما تفقد الروح نهائيا الهيمنة التي كانت لها على الغرائز المكبوحة الجماع^{lxvii}.

2- الفساد الروحي و الأخلاقي:

و في هذا الصدد يرى كل من مالك بن نبي و أ. توينبي أن انحلال الحضارات يرفقه فساد روحي و أخلاقي.

فمالك بن نبي يرى " ان القيم الاخلاقية ضرورة لبناء مجتمع في جميع مجالاته، لأنها هي التي تنظم سير الحياة فيه و تكفل لكل فرد سعادته. وحينما ينتفي الوازع الأخلاقي من المجتمع فإن تفككا يصيبه و يهدر من إمكانياته. و التفكك و إهدار الامكانيات يطعن الحضارة في أساسها، فيحدث فيها التصدع و الشقوق." ^{lxviii}

و أ.توينبي له رأي قريب من هذا: فهو يرى أن انحلال الحضارات يرافقه فساد يدب في أرواح الناس و تغيير جذري يطرأ على سلوكهم و مشاعرهم و حياتهم كلها. و يحل محل الصفات الباهرة و القوى المبدعة التي كانت تزخر بها ذواتهم في دور النمو الحضاري، ثنائية من النزعات و المواقف العقيمة المتناقضة. و في هذا الدور يتعرى الفساد الروحي أيضا عن فوضوية تعم الأخلاق و العادات، و انحطاط يسود الأدب و الفنون و اللغات، و محاولات عقيمة للتوفيق بين الديانات المختلفة، و للجمع بين الدين و الفلسفة بصورة عامة. و تسعى الأقلية المسيطرة في حالات معينة الى أن تفرض بالقوة على رعاياها فلسفة خاصة أو ديناً مختاراً. و لكنها تخفق في محاولتها^{lxix}.

3 - ظاهرة الاستعمار:

هذه الفكرة ايضا تناولها كل من مالك بن نبي و أ. توينبي: و بينا إلى أي مدى تساهم في سقوط الحضارات. فمالك بن نبي يرى أن محصلة عوامل التخلف من جهل و فقر و مرض و أوثان و انحطاط و انتكاس، تؤدي الى الاستعمار. و بين أن الاستعمار ليس ظاهرة خارجية بقدر ما هم ظاهرة داخلية،

تدعمها أسباب اجتماعية و أطلق على مجموع هذه العوامل التي تنخر المجتمع من الداخل ، اسم (القابلية للاستعمار). و قد تعرض لهذه الفكرة في مختلف كتبه و قلما خلا كتاب منها. فقد خصص مالك بن نبي في كتابه (شروط النهضة)^{lxx} فصلا لفكرة (القابلية للاستعمار)، و في كتابه (وجهة العالم الاسلامي)^{lxxi} .

كما نجد توينبي يرى أن المجتمع هو الذي يجلب على نفسه عوامل الانهيار، قبل أن يجلبها عليه غزو خارجي، تماما كالمنتحر الذي اعتدى عليه خصم له، عقب شروعه في الانتحار، فجاءت وفاته نتيجة ما أصاب به نفسه لا ما أصابه به خصمه. إن أقصى ما يفعله الغزو الخارجي هو توجيه ضربة قاضية الى مجتمع يلفظ أنفاسه الأخيرة. هذا هو سبب انهيار حضارات اندثرت و لم تقم لها قائمة. أما إن حدث العدوان الخارجي على مجتمع في مرحلة نموه فإنه يشكل تحديا يستثير طاقته الكامنة و عوامل الابداع فيه.^{lxxii}

فظاهرة الاستعمار إذن في نظر مالك بن نبي و توينبي ليست سوى ظاهرة خارجية، و المجتمع هو السبب الأول و الأخير فيها.

استنتاج:

نخلص مما تقدم ذكره من خلال هذه المقارنة، الى أنه يوجد نوع من الإلتقاء بين مالك بن نبي و أرنولد توينبي في نظرية الحضارة . وقد تبين أن مالك بن نبي، تأثر الى حد ما بنظرية توينبي، غير أنه يبقى هناك اختلاف كبير بينهما، إذ لكل نظرية من النظريتين سماتها الخاصة:

ففيما يتعلق بنظرية مالك بن نبي، نلاحظ أن الفكرة المسيطرة على تفسيره هي الدين. فالحضارات منذ نشوئها الى سقوطها تسيرها فكرة دينية أو أخلاقية.

بينما نجد خلاف ذلك عند توينبي، فهو يرى أن الحضارات منذ نشوئها الى سقوطها تسير وفق فكرة التحدي و الاستجابة. وقد غلب على تفسير مالك بن نبي التحليل العلمي بناء على تخصصه كمهندس كهربائي. بينما غلب الاستشهاد بالأحداث التاريخية على توينبي بحكم كونه مؤرخا.

الهوامش:

- ١-مجلة الفكر الاسلامي الجزائرية، مجلة شهرية، تصدر عن دار الفكر الاسلامي للطباعة و النشر، شهر أوت 1964، العدد 1، ص45.
- أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، دار الثقافة، بيروت، ص 258ⁱⁱ
- جريدة الجمهورية المصرية، العدد 7252 ، 3 نوفمبر 1973 .ⁱⁱⁱ
- غازي التوبة: الفكر الاسلامي المعاصر، ط1، 1969، دار القلم، بيروت، ص81^{iv}
- محمد محمد حسنين: مفكرون إسلاميون، مخطوط منشورات جامعة قارنيوس، ليبيا، ص2 .^v
- محمد محمد حسنين: الرجع نفسه، ص 2^{vi}
- مالك بن نبي : شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي و عبد الصبور شاهين، ط1، دار الجهاد القاهرة، 1957، ص92 .^{vii}
- مالك بن نبي : المصدر نفسه، ص 6^{viii}
- أرنولد توينبي: مختصر دراسة لتاريخ، ترجمة محمد فؤاد شبل، ط 2، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، 1966، ج1، ص 21 .^{ix}
- منح خوري: التاريخ الحضاري عند أرنولد توينبي، دار العلم للملايين، بيروت، 1960، ص 11- 12^x
- أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ص 59 .^{xi}
- المصدر نفسه، ص 61.^{xii}
- المصدر نفسه، ص 69 - 70^{xiii}
- المصدر نفسه، ص 71 - 78^{xiv}
- منح خوري: التاريخ الحضاري عند توينبي، ص 16 .^{xv}
- أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ص 58 - 59.^{xvi}
- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص65.^{xvii}
- ميلاد مجتمع، ص 5 - 6^{xviii}
- مالك بن نبي : شروط النهضة، ص 78 - 79^{xix}
- أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ص 127 - 137 .^{xx}
- مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ص 472 - 473 .^{xxi}
- أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ص 476 - 477 .^{xxii}
- منح خوري: التاريخ الحضاري عند توينبي، ص 40- 41 .^{xxiii}
- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 5 - 6.^{xxiv}
- أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ص 359.^{xxv}
- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 6 - 8.^{xxvi}
- أرنولد توينبي: مختصر دراسة لتاريخ، ج1، ص 147 - 182.^{xxvii}
- مالك بن نبي: شروط النهضة، ط3، 1969، دار الفكر، بيروت، ص 97.^{xxviii}
- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص18.^{xxix}
- مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، ص24.^{xxx}
- ميلاد مجتمع، ص 15 - 29.^{xxxi}
- ميلاد مجتمع، ص15.^{xxxii}
- ميلاد مجتمع، ص 28 - 29.^{xxxiii}
- ارنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ص349.^{xxxiv}
- مختصر دراسة لتاريخ، ج1، ص349 - 353.^{xxxv}
- مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ص 349 - 354.^{xxxvi}
- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 22- 24.^{xxxvii}
- ميلاد مجتمع، ص 24.^{xxxviii}
- ميلاد مجتمع، ص 24 - 25.^{xxxix}
- سورة الأعراف، الآية 97.^{xl}
- سورة يوسف، الآية 87.^{xli}
- ميلاد مجتمع، ص27.^{xlii}
- ميلاد مجتمع، ص65.^{xliiii}
- ميلاد مجتمع، ص67.^{xliv}
- أرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ص 313 - 314.^{xlv}

- أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ص349 – 362.^{xlvi}
- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص28.^{xlvi}
- سورة النحل، الآية 120.^{xlvi}
- مالك بن نبي: ميلاد مجتم، ص15.^{xlvi}
- توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ص476 – 477.ⁱ
- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص65 – 66.ⁱⁱ
- شروط النهضة، ص66.ⁱⁱⁱ
- شروط النهضة، ص105.ⁱⁱⁱ
- شروط النهضة، ص99.^{iv}
- توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج3، ص141.^{iv}
- منح خوري: التاريخ الحضاري عند توينبي، ص50 – 51.^{vi}
- Arnold Toynbee : A Study of History, Oxford University Press, 1934 - 1961-^{lvii}
- منح خوري: التاريخ الحضاري عند توينبي، ص50 - 51.^{lviii}
- أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج3 ، ص151 - 160.^{lix}
- توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ص381.^{ix}
- مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ص380 – 381.^{xi}
- منح خوري: التاريخ الحضاري عند توينبي، ص63 – 65.^{xii}
- أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ص208 – 209.^{lxiii}
- مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ص313 – 314.^{lxiv}
- ارنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ص477.^{lxv}
- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص49.^{lxvi}
- مالك بن نبي: شروط النهضة، 105.^{lxvii}
- مالك بن نبي : حديث في البناء الجديد، ص26 - 27.^{lxviii}
- أ. توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج2، ص255 – 329.^{lxix}
- مالك بن نبي : شروط النهضة، ط3، ص229 – 234.^{lxx}
- مالك بن نبي: وجهة العالم الاسلامي، ط2، ص100 - 107.^{lxxi}
- أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ: ج1، ص411
- lxxii.